الطفلة

من الأدب النرويجي

قصة كورا ساندل

ترجمة : حسين القباني

ولدت « كورا ساندل » في شمال النرويج وعاشت معظم حياتها في السويد • وان كتاباتها لتنم عن قوة ملاحظة وبراعة تصوير للشخصيات ، والسعي الدائب لمعرفة الحقيقة ، والشوق الدائم الى الحرية وتطوير الذات •

كان من الممكن أن يكون المكان ركنا في الجنة ، ولكنه بدلا من هذا كان شيئا مختلفا تماما فمن كان يظن أنه على هذا النحو ؟ ففي ركن من المتكآكانت دمية ترنو عيناها الزجاجيتان اللامعتان السوداوان الى الامام مباشرة •

وعلى قاعدة النافذة كانت ثمة نباتات مزهرة : نبات الفوشيا والجرومية في ذروة الازدهار وكانت الستائر فاتحة اللون ، من نسيج رقيق ، ترفرف على أجنحة نسائم الصيف • ونافذتان مفتوحتان زجاجهما لامع صاف • والكتب ملقاة على نضد ، وغيرها على أرفف حول الغرفة •• كتب كثيرة في موضوعات متباينة •• عن الحياة ، والموت ، والحب •• شعرا ونثرا • وعلى الأرضية قطعة وشي رقيقة ، نسائية ، من المخرمات والحرير الرقيق ، الناعم كبشرة طفل •

والبيانو مفتوح •• وعلى نضد الموسيقى ، كان ثمة نوتات من الموسيقى الممتازة •• قديمة وحديثة •• لشوبان وسكرايابان •

ان الطفلة تدخل الغرفة ، وتتعثرفي الارضية ، وتتناول الدمية بين ذراعيها وتلاعبها وتبحث بين الكتب الموضوعة على النضد عن كتاب فيه صور ، وتضغط على أحد أوتار البيانو « طفلة منتعشة ، صحيةالبدن ، عارية الذراعين والساقين ، ملون الوجه بالشمس والهواء ، عليها آثار التمرغ على الرمل والعشب ، والخوض في مياه الشاطىء ، صانعة فطائر من الطين ، أو سلسلة من الخس البرى ناعمة يأكل الشيكولاتة •

عيناها تنمان عن سعادة الطفولة ، واسعتان خاليتان من الهموم ، وكأنهما لا تدرى بما حولها •

وهنا ايضا يعيش بعض الكبار ، ولكنهم يعرفون أين يعيشون ، فالسيدة تدخل وتخرج وتروى الازهار ، وترتب الغرفة وتكنسها ، ثم تجلس أحيانا الى كتاب ، أو الى قطعة الوشى الملقاة لتصنع غرزة أو اثنتين ، لا أكثر · فان هناك بعض قطع الوشى لا يتم صنعها أبدا ·· وهذه احداها وكذلك هناك كتب تلقى عليها نظرات وحسب ، ولا تقرأ قط · انها تبقى هكذا خرساء ، تغلق بعنف بين الحين والآخر ، وتلقى جانبا ·

انها سيدة ملول ·· لاتكاد تجلس حتى تقف مرة اخرى ، باحثة عن شىء تفعله هنا أو هناك ، فهى تلمع زجاج نافذة ، لامعا فعلا ، وتنظف سطحا مصقولا بقطعة التنظيف ، وتشغل نفسها بأعمال كثيرة لا داعى لها · وهى فى بعض الاحيان تهمهم بالغناء ، ولكنها أيضا تمسح دمعة تطفو فجأة فى ركن عينيها قبل أن تنحدر على وجنتها · وهى ـ أى السيدة ـ نحيلة القوام ، سوداء الشعر والعينين ·

وهى أحيانا تدخل الغرفة ويداها مبللتان ، وعلى وجهها سمات التشوق وفجأة تمسح يديها فى مبدعتها وتندفع الى البيانو · وتنطلق الانغام تصور واقع الحياة ·· نغمتان ترتفعان فيما يشبه المناوشة : احداهما فيها تهكم وازدراء ، والاخرى فيها تشوق وابتهال ·· ثم تهديد : وتلتقيان اخيرا فى صدام عنيف يمتزج فيه الالم باللذة ·

وفجأة تتحول النغمات الى أصوات ناشذة تؤلم السمع · ان السيدة تلقى بيديها على الاوتار فترسل هذه ما يشبه العويل المرتفع · وتنحنى السيدة وتلمس برأسها الاوتار ، فتعول مرة أخرى ·· وتتساقط الدموع بين الاصابع ·

ولكن فى مقدورها أيضا أن تعزف مقطوعة موسيقية ليلية ، برقة بالغة ، وكأنما الليل اسدل ستائره ، وأمس أحدهم فى حاجة الى التهدئة للنوم ·· ولكن هذا أيضا يرسل الى خديها بعض الدموع ·

وهى قد تنهض وترقص الفالس «فى وسط الغرفة » · وقد تنتقل أيضا من جانب فى الغرفة الى جانب آخر بخطوات واسعة خافتة ، كخطوات حيـــوان فى قفص · وفى النهاية كان منديلها يرتفع دائما الى عينيها ·

انها تسمع الطفلة مقبلة ·· فتمسح وجهها بسرعة ، وتغير السمات المرتسمة عليه كأنها ممثلة مدربة · وتأتى الطفلة منواثبة ، وتترك الباب مفتوحا ،وتتعثر وتسقط بين ذراعى أمها هاتفـــة أو ضاحكة كما يفعل الاطفال · أو ربمـــا تحضر باقة مكونة من مختلف الزهـور البرية ، بعضها قصير السوق ، وبعضها طويل لا يتناسب مع الزهريات التى تتلقـــاها على كل حال ·· انظرى ·· انظرى اليها ·· ألا تبدو جميلة ؟ ·

وفى أحيان أخرى تصيب الطفـــلة نفسها فترفع اصبعامخدوشا أو تكشف عن ركبة صغيرة مستديرة عليهـــا آثار رمال ودماء الخدش · انهـا تغمغم باكية وتنادى أمها ، انها فى حاجة الى المساعدة والمواساة ، وما أسهل مواساة الطفلة وسرعان ما تضـــحك مرة أخرى ، ثم تجلس على المتكأ والدمية بين ذراعيهـا والضمادة حول الخدش ، تمتص شـيئا لذيذا ، أو تتفرج بكتاب مصور وتتحدث الام اليها ، وتضحك معها ، وتشغلها ، وتأخذها بين ذراعيها المرة بعد الاخرى وتقبلها · وكأنما فى اعماقهاشىء من لوم النفس ، أو الخوف من شىء ، وتترنم بفقرات من بعض الاغنيـــات ، وتسرد حكاية خرافية « فى يوم من ذات الايام كانت هناك امرأة صغيرة رقيقة قصيرة تعيش فى كوخ صغير رقيق قصير ·

وتنصت الطفلة بعينين لامعتين ، وفى ترقب بالغ ، ولكن الام تضطرب فى سياق الحكاية وتعجز عن اتمامها ·· وهنا تدفع الطفلة عن حجرها فى توتر عصبى وانشغال فكرى ، وتقول لها : «والآن·· تعالى الى الخارج لتلعبى ، فاننا لا نستطيع أن نمكث هنا طيلة اليوم »·

وتمضى الطفلة فورا ·· فهذا مايحدث عادة ·· وقد حـــدث قبل ذلك مرات عديدة ·

وعند المساء تسمع الام صرير بوابة الحديقة ، ثم صوت خطوات رجل عـلى الممر المفروش بالحصى · وفجأة يمس وجهها القلق ، جامدا مزموم الشفاه ·

وتتحرك بسرعة فى جوانب الغرفة، فتغلق البيانو ، وتخفى النوت الموسيقية وتقف برهة والوشى بين يديها لاتدرى ماذا تفعل به ، ثم تدعه أخـــيرا على النضد ·

وتخرج بعد ذلك من الغرفة ·

ويدخل الزوج ·

انه من النوع الذى يسميه الانسان المهذب المستقيم ، الموحى بالثقة ،الكريم المحتد ، فى ذروة الرجولة ·· وهـو أيضا بلا شـــك ، لطيف رقيق المعشر يمكنه أن يفرض السكينة والهدوء فى بيته ، ولكنه لا يفعل · وهـو من ثم ينظر حوله فى ارتياب ، ويعض شفتيه ويغمغم لنفسه ·

وكانت الطفلةقد دخلت معه . وهى تقف الآن معتمدة على ركبته ، مفعمة بمغامرات اليوم لقد رأت عصفورا .. عصفورا صغيرا جميلا .. ورأت جنديا .. جنديا صغيرا جميلا .. وجمعت باقة أزهار جميلة لأمها ، هناك .

نعم .. أليست جميلة ؟

ويأخذ الأب طفلته الى حجره ، ولكن تنطلق الى مكان آخر .

وتطالبه الطفلة بالانتباه اليها ، فتلتقط كتابا مصورا وتشير الى ما فيه من صور . ويقول الاب بلهجة آلية « نعم ما أجملها قطيطة . ما أجمله ببغاء صغير » .

ان عينيه على الباب.. يرهف السمع وفجأة يدفع الطفلة عن حجره ، ويلتقط التليفون ويدير القرص بسرعة على رقم معين ، واذا الام تدخل الغرفة وهو فى منتصف المحادثة .

انه لا يراها ولا يسمعها ، وانما يستمر فى الضحك والحديث الودى كما يفعل الرجل المشغول بأصدقائه ومسراته . بل انه ليبدو وكأنه لايذكرها حتى بعد أن وضع المسماع واستمر فى مكانه يبحث عن مزيد من الارقام فى سجل الارقام التليفونية ، وهو فى مزيد من الانشغال الذهنى .

وتقول هى فى خفة وتجلس :

ـ طاب مساؤك .

ـ أوه .. أهذا أنت ؟ طاب مساؤك.

ـ حسنا .

وينم صوتها عن اللهفة ، ولكنه لا يخلو من لهجة الطفل المترقب شيئا. ويخيب أملها حين يهز كتفيه ويقول :

ـ حسنا .. لا شىء يستحق الذكر.

وتجلس فى مكانها وكأنها كانت تنتظر أن تسمع شيئا غريبا .انها دائما تنتظر من هذا الزوج أن يقول شيئا لا يقوله أبدا . لقد ظلت طيلة حياتها الزوجية تنتظر وهى لاتعرف على وجه التحديد ماذا تنتظر . وكل ما تعرفه أن أملها الليلة قد خاب أيضا .

وعاد يلوح بيديه الخاليتين فى غموض :

ـ لا شىء ..

لقد كان يومه تماما مثل كل أيامه الاخرى ، لم يحدث شىء . انه يعود الى البيت من نفس الطريق الذى عاد منه بالامس ، وما قبل الامس . وهو ليس بالرجل الواسع الخيال الذى يمتلىء ذهنه كل يوم بالمغامرات . وهو ايضا ليس مخلوقا متقلب المزاج ، يحتد أحيانا أو يهدأ حينا أو ينفجر فجأة. انه ، غريزيا يقوم بقدر الامكان بدور الرجل العميق النفس الذى لا يستطيع الانسان العادى أن يسبر غوره ولكن هذا الدور لا يناسبه ، ولا هو بارع فى أدائه ، ولا هو يحب القيام به . انه يحب بطبيعته أن يكون صريحا واضحا .

على أن هذا الدور الذى يقوم به لا يخفف التوتر المنزلى . ان زوجته لا تزال تجلس فى مكانها ، تشعر بلا سبب واضح ، بالضيق والتحدى ، ان احساسها بخيبة الامل .. هذا الاحساس الذىليس له ما يبرره ،يخيم على جو الغرفة . كأنه شكوى صامتة، تزيد فى نفسه المزيد من التحفظ أكثر مما تطيق طبيعته. ترى ماذا تريد بحق الشيطان ؟ .

قال وهو يلوى شفتيه تهكما :

ـ حسنا .. وماذا عنك ؟ .

وتجيب هى بنفس التهكم :

ـ بخير ·· شكرا ·

ويسبب لهفته الى ازالة الشعور الثقيل المخيم على الجو ، أوقع نفسه فى مأزق · انه يلتقط قطعة الوشى ويتناولها بخشونة ويقول :

ـ ان على الانسان أن يكون سيدة لكى يجد الصبر والوقت لصنع شىء كهذا ·

ـ الوقت ؟ يا للسماء ·· ان هذا الوشى ملقى هنا منذ أسابيع : فلو كان لدى فقط الوقت اللازم ·

وتمسك عن بقية الحديث فى ضيق، ويتلفت هو فى جوانب الغرفة ·· الى البيانو · انه مغلق · وليس هناك نوت موسيقية فى سمت النظر · لقد وجد نفسه يواجه الجدار المرتفع الذى لاسبيل الى اجتيازه ·· جدار الاستغراق فى شئون البيت ·· هذه الشئون التى تستلزم تضحيات لا يدركها العقل · وهكذا وجد نفسه فى حيرة برهة ·

ولكنه يتمالك نفسه ويعود للحديث عن قطعة الوشى باعتبارها لقطة البدء فى حديث جديد :

ـ لا أظن أنى رأيت هذه من قبل ·

وتجيب وهى تنهض :

ـ ان هناك شيئا أو شيئين لاتراهما ·· لقد حان وقت الاكل ·

وفى نفس الوقت تنفجر بضحكة عالية ·· عالية جدا ·· تنم عن الاحتقار ·

ويشير برأسه فى عتاب الى الطفلة التى تنظر الى أمها فى دهشة :

ـ فكرى فى هذه ·

ـ اننى لا أفكر فى شىء آخر ·· اذا فكرت ·

ـ اذا فكرت ؟ ·

ـ أوه ·

وتأخذ الطفلة بيدها ، وتغادر الغرفة قائلة :

ـ هلم ·· هلم نغسل نحن الاثنين أيدينا ·

وكان الطعام ، مثل كل يوم شهيا بيتيا ، مدهشا · سمك مشوى ، وبطاطس جديدة وبيرة ، وسلاطة وحلوى فلا شك أن مذاقه جيد ·

واستمتع هو بالطعام · ورأى أن الحديث قد يؤدى الى هدنة بينهما ·

ومن ثم يقول :

ـ انه طعام لذيذ ·

وترد هى ببرود :

ـ أحقا ؟ اننى سعيدة بهذا ·

ويأخذ الاثنان بعد ذلك فى الحديث الى الطفلة ·· الحديث الآلى الذى يديره الكبار عادة مع الصغار ·

ـ ماذا كنت تفعلين اليوم ؟

ـ بيدك اليمنى يا حبيبتى ·

ـ هل كنت تلعبين مع الاطفال الآخرين ؟ ·

ـ أوه ·· احترسى ·· احترسى ·· اترين كيف اسقطت الطعام فى ثوب أمك ، يجب ألا تمسكى الملعقة هكذا ·· وانما هكذا ·

ـ وأفراخ دجاجة الجيران ، كيف حالها ؟ ·

ـ لا يجب أن تأكلى البطاطس فقط ·· كلى من السمك أيضا ·

وتجيب الطفلة يمينا ويسارا وهى سعيدة بكونها مركز كل هذا الانتباه انها لاتعرف قط انها واقفة على أرض خطرة ·· لا ترى الهاويات الواسعة أمامها ·

لقد اختطفت قطة أحد الافراخ ·

وداست الدجاجة الام على قرح آخر بلا وعى ، المسكينة ، وكسرت ساقه مما أدى الى ذبحه . كان لابد من ذبح الكتكوت الصغير الجميل . ولكنه الآن مدفون وفوق قبره صليب . والسمك لا يكون له مذاق جميل عندما لا يشعر الانسان بالجوع .

وتتململ الطفلة فى مقعدها وترفض أن تأكل أى مزيد من السمك .ويستمر الوالدان فى حديثهما معها :

ـ حسنا .. دعى السمك اذن يا حبيبتى .

ـ بل كليه الآن .

ـ ربما كان نصيبك كبيرا جدا .. ربما تجدين أنك لا تستطيعين أكل هذا كله .

ـ كفى ثرثرة يا بنت .. كلى سمكك والا فلن تذوقى شيئا من الحلوى .

وتقول الطفلة انها تستطيع أن تأكل الحلوى . ولكن السمك لا . وتتراجع فى مقعدها وتبدأ فى ضرب انائها بالملعقة انها لا تجلس الى المائدة كما ينبغى ، ولسوف تبعدها أمها دون حلوى .

ولكن الوالد يحضر الحلوى بنفسه من الخزانة الجانبية ، وينثر عليها السكر ويقدمها للطفلة قائلا :

ـ لا داعى لكثرة الحديث فى هذا الموضوع ، يجب ألانطلب منها المستحيل فى مثل هذه الحرارة الصيفية ، وعلينا أن نتجاوز عن بعض الاشياء .

حسنا .. لقد تصرف للمرة الاولى باعتباره رب البيت . وقد استطاع أيضا أن يضمن حديثه معنيين . وان هذا ليسره .

وتبدأ الطفلة فى تناول الحلوى . ولكنها تنتقل بنظراتها من وجه الى آخر فى اضطراب وخجل . لقد بدأ أول ادراك لها بان الحياه ليست حلوة دائما .

ولا ينطق الوالدان بكلمة أخرى .

وخيم الظلام .. ظلام الصيف الساكن ، وأطيافه فى السماء صافية كالزجاج ، ولكنه فى الوقت نفسه يزداد كثافة ، وتأخذ النجوم ،الواحدة بعد الاخرى فى الظهور وتشيع فى الجو رائحة الحنطة ، والأزهار . وينطلق من الاعشاب فى مكان ما صرير جندب لا يتعب وان المنظر ليبدو أكثر من المعتاد ، كقطعة من الفردوس .

وفى غرفة البيانو ، يضاء مصباح السقف ، وتصطدم فراشات الليل بزجاج النوافذ المغلقة . ولكن بعضها يندفع الى داخل الغرفة مفتونا بالضوء من النوافذ المفتوحة ثم يضل طريقه فيها فيستمر فى التحويم حول ظلة المصباح ، فيبدو وراءها كأنه ظلال صغيرة عاجزة حمقاء .

وانه لجالس هناك .

انه يضع الصحيفة جانبا ويشرع فى مراقبة فراشات الليل . ان محاولة نجدتها ضرب من العبث .انك لاتستطيع الا أن تتركها وشأنها حتى يرحمها الموت . انه ليعرف مشاعرها .. فقد طار هو نفسه ذات مرة الى الضوء وشعر بالفرق الهائل بين وجود الانسان داخل الضوء ، وبين نظرته اليه من الخارج . ان الانسان يظن أنه وجد الحصن الدافىء والصدر الذى يريح عليه رأسه ، والذى يجد فيه السكينة والراحة ، ولكنه بدلا من هذا يجد صدرا متحديا دائما ، متقلب المزاج ، لا يفهم الحقائق . موسيقى ؟ ليس هناك نوتة واحدة ، وان البيانو ليبقى فى مكانه صامتا ، يركز للشكوى منه ،

انه اذا لم يشعر بالشوق الشديد الى وجودها معه ·· أم طفلته ، فلابد له أن يرحل الى الابد ·

وسمع فى الحديقة وقع أقدام · انها هناك تتجول ·· انها تسير وتسير والحصى يئز تحت قدميها ، وهى بين الحين والآخر تتوقف ، وعندئذ يشحن السكون بأشياء تركت بلا حديث ·· اشياء لا يستطيع حتى أن يخمنها ، ومن ثم تجعله يتململ فى مقعده ·

وهى أيضا ترى فراشات الليل ، وهى أيضا تفكر فى جاذبية الضوء · لقد طارت هى نفسها الى شىء اعتقدت أنه سيبقى الى الابد مثيرا ·· ممتعا ·

انها تمضى الى هناك مفعمة النفس بالشوق الى معانى جديدة ·· دائما جديدة تدور كلها حول شخص واحد ·· حول الشوق الدائم الى شخص واحد ·· اب طفلتها انها محترقة من فرط الشوق الى ذلك الرجل الغريب الذى تعتقد أنه جالس الآن فى غرفة البيانو يقرأ صحيفته فى هدوء كامل ·

ان الطفلة نائمة فى مهدها الصغير الابيض · لقد نفضت عنها الغطاء بسبب الحر ، وبقيت راقدة بأطرافها الحمرية العارية ووجهها الشبيه بالزهرة · ان الطفلة منطلقة بعيدا فى حلم ·· نسيت خفقة ذلك الالم الجديد الغامض الذى خامرها لمدة لحظة واحدة · انها لاتعرف أن هذا الالم هو الرباط الحى الذى يشد اللحم والدم والاعصاب ويربط معا اثنين غير متلائمين ·· ولهذا السبب سوف تتعذب كثيرا ·· عندما يحين الوقت ·